القصص

على هامش السيرة

الفـــداء

للدكتور طه حسين

أصبحت سمراء محزونة كاسفة البال تبدو على وجهها المتجعد وجبينها المقطب كآبة مظلمة، لم تحاول فى هذا اليوم أن تخفيها أو تخفف من حدتها كما تعودت أن تفعل منذ أعوام وأعوام. فقد عرفت سمراء ألم الحزن منذ احتفرت زمزم، ومنذ ظهر حرص زوجها على الولد، ورغبته فى كثرة العدد، ومنذ خطب فاطمة المخزومية فأحبها وكلف بها، وانصرف اليها عن كل شىء وعن كل انسان. ومنذ كثر ولد فاطمة من البنين والبنات واشتد لذلك حب عبد المطلب لها وكلفه بها، وانصرافه اليها، وتجافيه عن زوجه الأولى تلك التى أضاءت له سبيل الشباب وأعانته على احتمال أثقال الحياة الأولى.

نعم عرفت سمراء ألم الحزن فى هذه الأعوام الطوال من حياتها. ولكنها كانت على بداوتها امرأة لبقة بارعة الجمال، زكية القلب، تعرف كيف تخفى عن زوجها ما يكره، وكيف تلقاه بما يحب.

وكانت توفق بفضل هذه اللباقة وهذا الذكاء الى أن تستميل اليها زوجها. وربما اضطرته الى أن ينقطع اليها وقتا ما وينسى زوجه الأخرى الى حين، ولكن يوما أقبل يحمل الى سمراء شرا ليس فوقه شر وألما ليس بعده ألم، أصبح هذا اليوم مظلما. فما أمسى حتى أظلمت له حياة سمراء كلها، ذلك انه مضى بموت ابنها الوحيد. فأذاقها مرارة الثكل واليتم والترمل جميعا. فقد كان الحارث لها ابنا تجد عنده قرة العين، وأبا تحس منه العطف وحنو الآباء، وكان هو يجد ألمها، ويعرف أسرارها ويجد فى الطب لهذا الألم، فكان يبالغ فى رعاية أمه ورحايتها. وكان شديد الحرص على أن يلقاها ما استطاع الى ذلك سبيلا، وعلى أن يطيل المكث معها والتحدث اليها، يشركها فى جد أمره ولعبه، يستشيرها ويظهر قبول مشورتها والاستماع لنصحها. فكان يقوم منها فى أكثر الأحيان مقام أبيه، وكان يعزيها بحبه وبره عما كانت تجد من الوحشة حين يصد عنها زوجها فيطيل الصدود. فلما مات الحارث مات معه أمل سمراء، ولم تلق الحياة إلا بوجه محزون كئيب يصور قلبا مكلوما مظلما. وقد جزعت سمراء لهذا الخطب واشتد جزعها وطال. ولكن أى شىء يبقى على الأيام! ولقد ذهبت الأيام الطوال بحدة هذا الجزع وشدته. كما ذهبت بنضرة شباب سمراء وكما ذهبت بحياة ابنها الحارث، وكما ذهبت بحب زوجها عبد المطلب. وأصبحت وقد تقدمت بها السن وامتحنتها حوادث الدهر امرأة مذعنة لحكم القضاء. لا تنكر شيئا ولا يسرها شىء. محزونة ولكن وادعة! ملتاعة ولكن فى هدوء!

وقد أحست انكار الناس من حولها لما يرون من حزنها وكآبتها. وما يجدون من انقباضها عنهم. فجدت ما استطاعت فى اخفاء ما تجد وكتمان ما تحس، واحتفظت لنفسها بهذا الكنز الحزين، كنز الذكرى وما تثيره من العواطف وما تهيجه من اليأس. وتركت للناس من نفسها شخصا عاديا يبتسم حين يبتسمون، ويرضى حين يرضون. ويشاركهم فى أكثر ما يجدون من عاطفة أو شعور.

على أنها كانت تجد شيئا من الرضى وراحة النفس حين تجد من زوجها عطفا عليها وأنسا اليها. وكان زوجها منذ أصابها هذا الخطب شديد الرفق بها، كثير الزيارة لها يصفيها مودة خالصة قوية. ولكنها خالية أو كالخالية من هذا الحب الذى يحيى قلوب النساء.

أصبحت سمراء فى هذا اليوم محزونة ظاهرة الحزن، كئيبة بادية الكآبة. أقبل عليها إماؤها الثلاث يحيينها تحية الصباح فردت عليهن تحيتهن ردا فاترا، ثم جلست وجلسن وأخذت مغزلها وأخذن مغازلهن، وعملت أيديهن فى الغزل وسكتت ألسنتهن عن الكلام. وكانت سمراء تدع مغزلها من حين الى حين وتظل ساكتة واجمة، وربما انحدرت من احدى عينيها دمعة حارة فأسرعت اليها تزيلها بيدها دون ان تقول شيئا. والاماء صامتات ينظرن فى حزن عميق الى مولاتهن الحزينة، ولا تستطيع واحدة منهن أن تبدأها بالكلام. فلما طال عليهن هذا الصمت وهذا الحزن وثقل عليهن ما كن يجدن من ألم وما كان يملأ قلوبهن من حب للاستطلاع ورغبة فى الكلام وميل الى تعزية مولاتهن، اجترأت ناصحة، وكانت أشجعهن قلبا وأطولهن لسانا. لأنها كانت تعرف مكانتها عند سمراء، فقالت: لقد أصبحت ياسيدتى على حال

ما رأيناك عليها منذ زمن بعيد. فقد كنا نراك محزونة كئيبة ولكنك كنت تجاهدين الحزن وتدافعين الكآبة وتتكلفين الرضى، وكنا نجد من ذلك ما يشجعنا على تسليتك وتلهيتك بالحديث حيناً وبالغناء حيناً آخر: تقص عليك كل واحدة منا ما حفظت من أخبار بلادها، وتغنيك كل واحدة منا ما تعلمت من الغناء فى رطانتها الأعجمية. وكذلك كنت تسمعين أقاصيص سورية وأخرى حبشية وأخرى يونانية. وكنت تسمعين أغانى فى لغات أجنبية قليلا ما تعجبك ولكنها كانت ترسم على ثغرك الابتسام فى أكثر الأحيان. أما اليوم فلم نر منك إلا حزناً قاتماً، ولم نسمع صوتك العذب، ولم يرعنا إلا هذه الدموع التى تسفحينها فى صمت أليم. تكلمى يا مولاتى أيتها ماذا تجدين؟ ماذا أحزنك اليوم؟ تكلمى وأحسنى ظنك بنا، فقد نستطيع أن نعينك على الحزن كما كنا نستطيع أن نعينك فى تلك السرور. نحن إماء، ولكننا نساء نجد الحزن كما تجدينه، ونحس اللوعة كما تحسينها. ولعل حبنا للبكاء أشد من حبنا للضحك؛ ولعل حرصنا على الحزن أشد من رغبتنا فى السرور. ولعلنا أن شاركناك فى الحزن والألم جاريناك طائعات، وأرسلنا نفوسنا على سجاياها. فليس فى حياتنا وإن كنت لنا مكرمة ما يسر أو يرضى، وأى شىء يسر أو يرضى فى حياة الأمة الغريبة التى لا تملك نفسها! ولا تحس إلا ذل الرق ولا تستطيع أن ترضى حقاً أو أن تسخط حقاً إلا إذا خلت إلى نفسها، وأنى لها أن تخلو إلى نفسها! تكلمى ياسيدتى ماذا يسوءك وماذا يغشى وجهك بهذا الغشاء الحزين؟ قالت ناصعة ذلك وانتظرت أن تجيبها سمراء، ولكنها لم تظفر بجواب، وإنما رأت دموعاً تنحدر ثم تنهمر ثم تستحيل إلى زفرات حارة ونحيب غير منقطع. هنالك عم الحزن ما بين السيدة الحرة وإمائها من فروق، فأسرعن إليها يلثمنها ويرفقن بها. هذه تقبلها، وهذه تمسح دمعها، وهذه تمر يدها على رأسها. وهن جميعاً يبكين لها ويبكين لأنفسهن. وقد هدأت سمراء بعض الشىء، وسكنت نفسها الثائرة إلى هؤلاء الإماء الرفيقات فابتسمت لهن فى حزن، وشكرت لهن ما أظهرن لها من مودة وعطف، وطلبت إليهن العودة إلى ما كن فيه من عمل. وأخذت هى مغزلها وجعلت تديره فى يدها، ولكن ناصعة لم تلبث أن عادت إلى الكلام فقالت وهى تتكلف الابتسام وتصنع الضحك: ليس يغنى عنك الصمت يا مولاتى فإنا نعلم ما تسرين كما نعلم ما تعلنين. ولولا خوفنا منك وإكبارنا إياك لقصصنا عليك القصة التى تحزنك وتجرى دموعك الحرة على خدك النقى. ولكن أنى لنا أن نبلغ منك هذه المكانة وإنما أنت سيدة ونحن إماء! قالت سمراء: كفى عن هذا الحديث يا ناصعة فقد أنسيت اليوم أن بينى وبينكن فرق ما بين السيدة وإمائها. ولست أرى منكن الآن إلا نساء تعسات مثلى. إنما نحن أخوات فى الشقاء والبؤس، وما ينفعنى أنى حرة وأنا مثلكن مقيمة على الضيم محتملة للذل، مذعنة لصروف القضاء! لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً ولا أستطيع أن أبرح هذه الدار! وإلى أين أبرحها! لقد ذهبت غارة بنى أسد بأبى وأخى، وأصبحت أمى وأخواتى إماء مثلكن، لا أعرف من أمرهن شيئاً ولم ينهض فتيان بنى عامر وكأنهم للثأر! ليت شعرى ماذا يصنع أبو براء بإساءته! ماله لا يلاعبها؟ لقد ذهب الموت بأبى وأصبحت أسيرة فى يد عبد المطلب. أسيرة لا كالأسرى: يحنون ولا أستطيع له بغضاً ولا قلى كما يحمل الأسرى. وإنما أحبه ولا أجد عن داره منصرفاً. ها هو ذا قد عاد من رحلته إلى اليمن منذ ثلاث. فلما بلغ مكة أسرع إلى هالة بنت وهيب فقضى عندها أولى لياليه وأول أيامه لأنها أحدث زوجاته به عهداً. ثم أصبح فانتقل إلى نتيلة فأقام عندها يوماً وليلة. ثم أصبح فانتقل إلى فاطمة فأقام عندها يوماً وليلة وما أرى إلا أنه سيقبل بعد حين، فيلم بهذه الدار إلمامة قصيرة ثم يسرع إلى هالة! فما أشد شوقه إليها وقد حدثت أنه أقبل من اليمن كأحسن ما يكون الرجال سمة وأبرع ما يكونون جمالاً. وحدثت أن هالة أنكرته حين رأته فقد ودعنا أبيض الرأس وعاد فاحم الشعر، كأنه لم يتجاوز الثلاثين(١). وقد أنكرته من قبل قريش كلها لما رأت من سواد لمته. ولكنه أزال عجب قريش حين أظهر لها هذا الخضاب الذى حمله من اليمن، والذى يرد الشيب شباباً، والذى أسرعت قريش إليه فاشترت منه واختضب به شيبها فإذا أهل مكة كلهم شباب.

كل ذلك ولم أر عبد المطلب، ولم أحس منه ذكراً لى وحنيناً إلى. وماذا يصنع؟ ليس لى شباب هالة، ولا جمال نتيلة، ولا ولد فاطمة، وإنما أنا عجوز فانية، يتيمة وحيدة ليس لها أب ولا أم ولا ولد، أنا هذا الحمل الثقيل الذى يضيق به صاحبه، ولكنه يأبى أن يلقيه ويتخفف منه مخافة أن يصفه الناس بالضعف أو القصور.

قالت ذلك وأغرقت فى بكاء طويل شاركها فيه إماؤها الثلاث. ولكن ناصعة لم تلبث أن قالت: أهذا كل ما تعلمين من أمر زوجك ياسيدتى؟ إنك إذاً لتجهلين كل شىء ولا تعلمين إلا أقل أمر خطراً. وإن عندى من أمر سيدنا ما لو قصصته عليك لأرضاك ولخفف لوعة الحزن هذه التى تحرق فؤادك الكئيب. لن ترى زوجك اليوم يا مولاتى فهو عنك فى شغل. لقد كان راضياً مسروراً حين كان يرى نساءه ينكرن سواد لمته ويعجبن بشبابه الجديد، وحين كانت قريش تسبق إليه تشترى منه هذا الخضاب بما أحب من مال، ولكنه محزون منذ أمس، مغرق فى حزن لا قرار له، فهو خليق بالرثاء. إنك تحبينه ياسيدتى وستنسين إعراضه عنك، وسترثين له، وإنى أخشى أن تخفى إليه حين تعرفين نبأه. قالت سمراء فى شىء من الجزع بدأ هادئاً ولكنه لم يلبث أن اشتد قليلاً قليلاً حتى بلغ أقصاه: ماذا تقولين؟ وم تحدثين؟ هو محزون! هو خليق بالرثاء. لماذا؟

(١) انظر طبقات ابن سعد صفحة ٥٣ جزء أول قسم أول

ابني متى علمت بذلك؟ وكيف أخفيته علي؟ ما الذي يحزنه؟ ما الذي يسوءه؟ ما الذي يجعله أهلاً للرثاء؟ ما الذي يضطرني الى أن أخف اليه لأعزيه وأواسيه؟ قولي أسرعي، لا تخفي علي شيئاً. قالت ناصحة: مهلاً يا سيدتي أرفقي بنفسك ولا تذهبي بآمالك الخيال كل مذهب. لا بأس عليه في نفسه، ولا في ماله ولكنه يعذب منذ أمس ويعنيه. هوني عليك إني في هذه المحنة لعزاء لك عن فقد حارثك العزيز. أتذكرين يوم احتفر زمزم فنذر لئن أوتي من الولد عشرة ذكوراً .... قالت سمراء: يرحم الله صيحين واحداً يا بؤس هذا اليوم! لقد عرفت هذا النذر وكان مصدر شقائي كله، عرفت أنه سيكثر من النساء ورأيت مدية التضحية ممدودة إلى عنق قد تكون عنق ابني العزيز. منذ ذلك اليوم كرهت النساء جميعاً لأني رأيت في كل واحدة منهن ضرة لي. ومنذ ذلك اليوم رأيت شبح الموت مقيماً بهذا البيت ما أقام فيه ابني مفارقاً لهذا البيت ما فارقه ابني. ومنذ ذلك اليوم لم أر ابني في يقظة ولا في نوم إلا رأيت الموت له ظلاً. أتمي حديثك يا ناصحة. قالت الفتاة: لقد ذكر زوجك أمس وهو يتحدث إلى فاطمة نذره هذا وذكر أن أبناءه الذكور قد بلغوا عشرة أحياء برآهم مولد طفله حمزة فأقسم ليوفين نذره. وليضحين بأحد أبنائه وليجعلهم قسمة منذ اليوم حتى تسهم له هالة أو نتيلة أو غيرهما عشرة أو تزيد بهم على العشرة. ولم يكد يعقد هذه اليمين حتى جزعت فاطمة وشاركها بناتها في الجزع. أشفقت على الزبير وأبي طالب وعبد الله وغيرهم من بنيها.

وبلغ الخبر نتيلة فخافت على العباس، وبلغ الخبر هالة فجزعت على حمزة وثارت لكل امرأة ثائرتها. وألح الناس على الشيخ: تأبى كل قبيلة أن تكون التضحية منها. ومضى الشيخ في عزمه فجمع اليه بنيه وأنبأهم بنذره فكلهم أذعن له فيهم أطاعه وكلهم ألح عليه ليوفين بالنذر ولتقدمن الضحية. وليس لقريش منذ أمس حديث إلا هذا النبأ هم يتناقلونه ويكبرونه وينكرونه وقليل منهم من يقر الشيخ على هذا العزم الفظيع. قالت سمراء وهي مضطربة. ثم قالت الفتاة: ثم أقبل الشيخ ببنيه الى الكعبة مع الصبح فأجال فيهم قداحه فخرج القدح على أحب بنيه اليه. وآثرهم عنده. قالت سمراء وقد سالت من عينيها دمعتان محرقتان: خرج القدح على عبد الله؟ قالت الفتاة: نعم. فأخذ الشيخ بيد ابنه يقوده الى المذبح وفي يده المدية ولكن بناته جميعاً وأمهن قمن دون الفتى صائحات يستصرخن بني مخزوم ويستصرخن قريشاً كلها يمنعن الفتى بحياتهن. وأقبلت احداهن الى الشيخ ضارعة ثائرة معاً فقالت: اذا كان قلبك قد استحال الى صخر فلا ترق لابنك الشاب ولا لأمه الشيخة ولا لأخواته البائسات. واذا كانت شريعة قريش قد قست وجفت وغلظت حتى جعلت للآباء على أبنائهم حق الحياة والموت كأنهم الرقيق أو الحيوان، فدعنا نحتكم في هذا الفتى الى رب هذا البيت فهو أوسع منك رحمة وأجدر منك أن يضن بهذا الشباب على الضياع. وإن رباً بهذا الدم الذكي أن يراق لنحتكم الى رب هذا البيت في أمر هذا الفتى، لنقرع بينه وبين هذه الابل الكثيرة التي تسيمها في الحرم ولنلقين من ذلك ما يرضي رب هذا البيت.

وكانت قلوب قريش قد تفطرت حزناً وتصدعت أسى لقول هذه الفتاة وهي تبكي، وقد التزمت أخاها تعانقه وتقبله وتغسل وجهه الناصع بدمعها الغزير وهي تصيح: لأموتن قبل أن تموت. فما زالت قريش بالشيخ تلاينه حيناً وتخاشنه حيناً حتى اضطرته الى أن يقبل تحكيم الآلهة.

قالت سمراء وقد بلغ بها الهلع أقصاه: ثم ماذا؟ قالت الفتاة: ثم لا أدري تركتهم يتأهبون لاجالة القداح بين الفتى والابل وأقبلت لأقص عليك النبأ فرأيتك فيما كنت فيه من حزن عميق.

قالت سمراء: يا بؤس لهذه الحياة! لا يسعد فيها الناس بخير مهما يكثر كل السعادة، ولا يشقى فيها الناس بشر مهما يعظم كل الشقاء. أسعيدة أنا بموت الحارث أم شقية؟ لو قد عاش لذاقت الآن ما تذوقه فاطمة من هذا الحزن اللاذع والخوف المهلك ولكني كنت أوثر مع ذلك أن يعيش فقد كان يمكن أن تخطئه القداح، وقد كان يمكن ان لم تخطئه في المرة الأولى أن تخرج على الابل من دونه وقد كنت أستمتع به أعواماً، ولكن هلم لا مقام لنا الآن لنسرع الى حيث هم لنشاركهم فيما يجدون. واحسرتاه إني لصادقة الحزن؟ إني لصادقة الخوف! إني لشديدة الاشفاق! إني لشديدة الرجاء، ولكن فاطمة ستظن بي سوءاً وستقدر أني أقبلت غير بريئة النفس من الشماتة. قالت ذلك ونهضت يدفعها حزنها الخالص ويردها خوفها من سوء الظن، ولكنها أسرعت مع ذلك وأسرع معها إماؤها. ولم تكد تتقدم في الطريق نحو المسجد حتى سمعت أصواتاً ورأت اضطراباً ثم تبينت في الأصوات فرحاً ورأت على الوجوه بشراً، وعرفت أن القدح قد خرج بعد لأي على مائة من الابل وأن عبد المطلب يؤذن في الناس أنه سينحر هذه الابل بين الصفا والمروة، وأنها حرام عليه وعلى بني هاشم، مباحة لغيرهم من الناس والحيوان والطير.

فأسرعت سمراء حتى اختلطت بفاطمة وبناتها وهن سائرات يحطن بالفتى ويحلن بينه وبين غيره من الناس، حتى اذا بلغن البيت ألفين فيه امرأتين تبكيان احداهما هالة بنت وهيب أم حمزة وزوج عبد المطلب، والأخرى بنت عمها اليتيمة آمنة بنت وهب. هنالك أقبلت سمراء هادئة باسمة الى الفتاة فكفكفت من دموعها، وضمتها اليها وقبلت جبينها الطلق، ثم التفتت الى عبد الله وهي تقول: هلم يا فتى فقبل أهلك فيما تقل لها في المهر فلن تبلغ هذه الدموع التي ذرفتها حزناً عليك. ثم نظرت الى فاطمة وهي تقول: ألا ترين أنها أحق فتيات قريش أن تكون له زوجة!

طه حسين